

إشكالية تلقي القرآن الكريم كنص أدبي في ضوء نظرية التلقي لـ"هانز روبرت ياكوب"

زهراء دلاور ابريكوه^١، كبرا روشنفكر^٢، عيسى متقي زاده^٣، حميدرضا شعيري^٤

١- طالبة دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس.

٢- أستاذة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس.

٣- أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس.

٤- أستاذ في قسم اللغة الفرنسية وآدابها بجامعة تربية مدرس.

الملخص

إن تلقي القرآن الكريم كنص أدبي، تعدّ أحد أنواع التلقيات لهذا النص في القرن العشرين. فإن هذا النوع من التلقي له الجذور العميقة في التراث وبخاصة في جهود دارسي الإعجاز، إلا أن هناك فروقا جذريا بين تلقي النص القرآني أدبيا في القلم والجديد، وهذه الفروق ناشئة من المناهج التي تُستخدم لقراءة النص الأدبي وتحليله، فإذا تلقينا القرآن كنص أدبي من منظور النظريات الحديثة كنظرية التلقي، فسنواجه إشكاليات عدة، إذ تقتضي هذه النظرية أن نتجاهل المؤلف وأن نعتبر النص مفتوحا يتشكل معناه بشكل جدلي؛ فالمعنى يتم "تفعيله" من خلال تلقياته المتعاقبة، وهو نتاج العلاقة الجدلية بين النص والقارئ والقراء أنفسهم طوال الأزمنة. يأتي هذا البحث بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، ليكشف تلك الإشكاليات التي يثيرها تلقي القرآن كنص أدبي في ضوء نظرية التلقي لـ"هانز روبرت ياكوب". وقد أتضح أن مبدأ الانسجام يقدم لنا معيارا لتمييز التفاسير القريبة والبعيدة عن حقيقة القرآن ويسهم في تطهير تدخلات القارئ التأويلية عند تلقيه هذا النص في ضوء النظريات الحديثة.

الكلمات المفتاحية: النص الأدبي، نظرية التلقي، القرآن الكريم.

١. المقدمة

إن القرآن بشكله اللغوي وبنيته التركيبية والموسيقية، في بداية الأمر استدعى انتباه المكين إلى كونه أدبيا؛ فعندما سمع معاصرو النبي(ص) الآيات الأولى، وجدوا فيها تقاربا بما عهدوه من قصائد شعرائهم وأقوال كهاتهم. ويبدو ذلك بوضوح في الاتهامات التي يشنها خصوم النبي(ص) ضده. وكان العرب يعرفون خصائص شعرهم وقد وجدوا في القرآن ما رأوه سابقا عن خصائص الشعر الأساسية من التصاوير البارعة وأخذ أسماعهم بإيقاع جميل. هذا مع إقرارهم بما للشعر من أثر في النفوس، وكما يرى أحمد بدوي أنهم قد ألفوا تأثيرا عميقا عند استماعهم للقرآن، فاستطاع القرآن أن يصل إلى ذلك التأثير العنيف وهو لم يكن شعرا. (أحمد بدوي، ١٩٩٦، ٢٤) إن تأثير القرآن على جمهوره الأول والكيفية التي تم فيها تلقي القرآن عند العرب والمسلمين طوال القرون حيث يخلق لجمهوره سلسلة من الأسئلة الأدبية والشكلية والأسلوبية على الدوام، كلها يدل على قيمته الأدبية والجمالية واستمرارية تأثيره؛ فالعمل الأدبي لا يستطيع الاستمرار في التأثير، إلا إذا وجد قراء يمتلكونه من جديد، وكتاب يقلدونه أو ينقضونه؛ أي حين يصبح موضوع التجربة لدى الجمهور المعاصر واللاحق، قرآنا ونقادا وكتابا، كل حسب أفق توقعه الخاص به. وفي هذا الشأن، يرى هانز روبرت ياوس^١ (١٩٢١-١٩٩٧)، أحد منظري نظرية التلقي، أن العمل الفني الأصيل الذي يستطيع "قول شيء ما" للأجيال اللاحقة، لا يرجع ذلك إلى شكله اللازمي، بل يكمن في كون "شكله" تبقى دلالاته مفتوحة على الرغم من مرور الزمن وتغييره، ومعنى العمل في هذه الحالة "ليس متزلا من أول وهلة، بل معنى يتم تفعيله من خلال تلقياته المتعاقبة التي يطابق تسلسلها، تسلسل الأسئلة والأجوبة. وجمالية التلقي تحدد لنفسها غاية الكشف عن الكيفية التي يتم بها تشكل المعنى". (ياوس، ٢٠٠٤، ١٢٦) ويذهب ياوس إلى أنه لا يمكن دراسة تاريخ تلقي الأعمال الأدبية إلا إذا اعترفنا أن المعنى يتشكل بالحوار. إذا وافقنا على أن معنى العمل الأدبي هو حصيلة تلاقي النص والجمهور، وإن بنيته دينامية لا يمكن إدراكها إلا ضمن تلقياته التاريخية المتعاقبة، وبالتالي إذا تلقينا القرآن كنص أدبي، فنواجه إشكاليات عدة، إذ نحن حيال نص مقدس له خصوصياته التي جعلته يتأبى من أن يتعامل كأبي نص أدبي، فله هوية خاصة. ويرى بعض العلماء أنه لا ينبغي تطبيق المناهج الحديثة في دراسة النصوص الأدبية على القرآن، لأن هذه المناهج والمصطلحات قد تم توليدها في الحضارة الغربية ولها ظروفها الخاصة التي أدت إلى إيجادها ولذلك لا يصلح تطبيقها على النص القرآني. ومقابل هذا الموقف، نجد من يرى في توظيف الآليات الغربية فتحا جديدا ويرى إخضاع النص القرآني لتلك المناهج والنظريات يمثل احتراما له ووفاء بحقه، وفي رأيهم تطبيق "نهج تحليل النصوص اللغوية الأدبية على النصوص الدينية لا يفرض على هذه النصوص نهجا لا يتلاءم مع طبيعتها. إن المنهج هنا نابع

1. Hans Robert Jauss

من طبيعة المادة ومتلائم مع الموضوع". (أبوزيد، ٢٠١٤، ٢٧) وعندئذ نجد أنفسنا مضطرين لطرح التساؤلات الآتية: ما هي المسوغات والشروط التي تسمح لتلقي القرآن كنص أدبي نظرا إلى كونه نصا دينيا؟ وما الإشكاليات التي يثيرها تلقي القرآن كنص أدبي في ضوء نظرية التلقي؟ من أجل الإجابة عن هذين السؤالين، نستعين بالمنهج الوصفي - التحليلي ونركز على معطيات نظرية التلقي لهايز روبرت ياوس الذي تأثر بهرمينيوطيقا "هانس جورج غادامير" (١٩٠٠-٢٠٠٢) وانطلق في نظريته من إشكالية متعلقة بالمعنى والعمل الأدبي، وموقف المتلقي من العمل، وصلته به، والمبادئ التي تنظم هذه الصلة. فهذه الدراسة تطمح إلى كشف الإشكاليات التي يثيرها تلقي القرآن الكريم كنص أدبي في ضوء نظرية التلقي. فلا بد أن نتحدث أولا بمسوغات تسمح للتلقي الأدبي للقرآن الكريم، ثم نتناول الإشكاليات.

٢. سوابق البحث

يرى مستنصر مير في مقاله (١٩٨٨) أن الدراسات التي تم تحريرها حول خصائص القرآن الأدبية طوال القرون الماضية، تختلف عن الاتجاه الحديث الذي ينظر إلى القرآن كنص أدبي، حيث إن معظم تلك الدراسات بالنظر إلى أغراضها وبنائها، تعتبر الدراسات الدينية وليست قائمة على النقد الأدبي. بينما هذا الاتجاه الحديث الذي يهدف إلى الدراسة الأدبية المنهجية، يدرس النصوص بوصفها وحدة منسجمة. يذهب عبد الرحمن بن رجاء في مقاله (٢٠٠٩) إلى أن دراسة النص القرآني من خلال الوجهة الأدبية تؤدي إلى نزع قداسة النص القرآني، وإغفال عملية القرآن بالتأكيد على عروية النص، واختزال فهم النص القرآني في التفسير الأدبي وإسقاط المصطلحات النقدية على النص القرآني. يوسف رحمان في مقاله (٢٠١٢) يركز على قضية كون القرآن نصا أدبيا وبالتالي يمكن الاقتراب به عبر التفسير الأدبي. ويذهب إلى أن العلماء المسلمين يعتقدون أن المعنى القرآني، يجب أن يفهم كما فهمه النبي (ص) ومعاصره، ويدعون أن هذه المعاني، يمكن أن تُكشف من خلال الدراسات التاريخية للتفسير السابقة ومن خلال السيرة. إلا أن هذه الرؤية تتجاهل أن دور الهرمنيوطيقا لا يقتصر على كشف المعنى بل على إنتاج المعنى. فباعثاده أن النظريات الأدبية الحديثة تشجع القراء، باستمرار، للبحث عن المعاني الجديدة للنص. محمد السلامة في كتابه (٢٠١٨) يتناول إمكانية استخدام النقد الأدبي لدراسة القرآن، ويرى أن المعضل الديني الأساس لإعادة التفكير في تفسير القرآن في القرن العشرين، هو إنغلاق الأبواب أمام القراءات والتفسير الصحيحة. ولإيضاح القضية يأتي بمثال عن شجرة مع النباتات التي تحيط بها؛ عندما يُنبتس بعضها ببعض، فبدلا من الدفاع عن الشجرة أمام كل شيء جديد وغريب، يتم الدفاع عن تلك النباتات. وبالتالي تكتسب تلك

1. Hans Georg Gadamer

النباتات بُعِدَا قدسيا، بينما تبقى الشجرة في الصمت. وعندما يحاول كتاب مثل حسين وخلف الله وأبي زيد، الإيصال إلى الشجرة، يواجهون تلك النباتات التي تم تقدسها أخيرا. نستطيع أن نلاحظ من خلال تلك الدراسات أن تلقي القرآن الكريم كنص أدبي وبالتالي استخدام مناهج تحليل النصوص الأدبية لدراسته، هو موضع اختلاف عند الباحثين، ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نصل إلى حل.

٣. الإطار النظري

هانز روبرت ياوس في كتابه "جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي" يرى أنه من الخطأ أن نظن أن العمل الأدبي هو جامد ومعناه ثابت للأبد، فالعمل الأدبي ليس شيئا يقف بمفرده ويعرض نفس الوجه لجميع القراء في جميع العصور، وللاقتراب من المعاني، يستعير مفهوم "السؤال-الجواب" من فلسفة الهرمينوطيقا لغادامر، ويرى ياوس أن هذا المفهوم عند غادامر يعني "لا يمكن فهم النص إلا إذا فهم السؤال الذي يجيب عنه هذا النص". (ياوس، ٢٠٠٤: ٥٢) وبناء على هذا، يذهب ياوس إلى أن العمل الأدبي هو جواب عن سؤال القارئ، وأن فهم العمل الأدبي الذي ينتمي إلى الماضي، في غيرته، يقتضي اكتشاف السؤال الذي قدم العمل له جوابا في فترة ظهوره، فيجب التعرف على السؤال الذي يقدم النص جوابا عنه، وبالتالي إعادة بناء أفق الأسئلة والتوقعات الذي عاشه العصر الذي فيه دخل العمل الأدبي إلى متلقيه الأوائل، لأن إعادة تشكيل أفق التوقعات، في هيئة تلك الفترة التي تم فيها خلق العمل وتلقيه، "تسمح لطرح الأسئلة التي أجاب عنها هذا العمل، ومن ثم، بالكشف عن الطريقة التي أمكن بها لقارئ تلك الفترة أن ينظر إليه ويفهمه". (ياوس، ٢٠٠٤: ٥١) وبناء على هذا، فللحصول على مسوغات لتلقي القرآن كنص أدبي، نتمسك بسلسلة تلقياته منذ بداية نزوله، فبالنظر إلى تاريخ تلقيات لعمل ما، يُدرك القارئ تلك الطرق المختلفة التي أجاب بها النص الأسئلة الكثيرة طوال التاريخ. وفي نفس السياق، يرى ياوس أن دراسة تاريخ التلقي، تكشف أن قوة المعنى الكامنة للعمل، لا يمكن إدراكها بقراءة واحدة، أو عند جمهور واحد، فلا يمكن يُطلب من النص أن يجيب لكل أسئلة في الأفق الأول الذي ظهر فيه، فيجب تصور العمل الأدبي "بنية مفتوحة تقتضي أن ينمو فيها، ضمن فهم متحوّوٍ حرّ، معنى ليس منزّلا من أول وهلة، بل معنى يتم "تفعيه" من خلال تلقياته المتعاقبة التي يطابق تسلسلها تسلسل الأسئلة والأجوبة". (ياوس، ٢٠٠٤: ١٢٦) إذن، إن المعنى، عند نظرية التلقي، هو حصيلة تلك العلاقة الجدلية بين النص والقارئ، وحصيلة التفاعل بين القراء أنفسهم طوال الأزمنة. وإن إنفتاحية النص، هي من المكونات الأساسية لكل العملية

1. Hermeneutics

2. Alterity

الحوارية والتواصلية.

وفي نفس المجال، يعتقد "ولفغانغ أيزر"^١ (١٩٢٦-٢٠٠٧) القطب الثاني من أقطاب نظرية التلقي، أنه "بدا من الصعب أن يخطر ببال النقد أن النص ليس في وسعه أن يمتلك المعنى إلا عندما يكون قد قُرى". (أيزر، ١٩٨٧: ١١) فمعنى النص الأدبي، في رأي أيزر، ليس كينونة قابلة للتعريف، غير أنه إذا كان شيئاً فهو حدث دينامي. وفي هذا الشأن، يرفض أيزر دعوى "المعنى الوحيد" للنص، لأن اعتبار المعنى الوحيد للنص، يقلل من درجة مشاركة القارئ؛ فلو أن النص لا يحمل سوى المعنى الكامن الذي يكشف عنه التأويل، لما تبقى أمام القارئ الكثير ليفعله، وهو يرى أن متعة القارئ تبدأ عندما يشارك هو نفسه في صنع المعنى ويصبح مُنتجاً، ولكي يكون القارئ مشاركاً في بناء المعنى، وبالتالي، يحدث التفاعل بين النص والقارئ، فيجب اعتبار "المعنى كشيء يحدث، لأننا آنذ فقط ندرك تلك العوامل التي تكون شرطاً سابقاً لتكوين المعنى". (أيزر، ١٩٨٧: ١٤)

إذن، يبدو أن تلقي القرآن كنص أدبي من منظور نظرية التلقي، له إشكاليات عدة فيما يتعلق بضرورة اعتبار معنى النص القرآني غير نهائي وغير ثابت، فلا بد أن نتفحص القضية من الأبعاد المختلفة.

٤-١. مسوغات تلقي القرآن كنص أدبي

إن القرآن هو كتاب الهداية، يهدف إلى تغيير وهداية متلقيه دينياً وأخلاقياً. وإضافة إلى وظائفه التعليمية والإخبارية وغيرها من الوظائف، يمكن التعرف على الوظيفة الشعرية فيه بالنظر إلى السمات الواردة فيه وبما أنه كان يؤثر في المتلقين بشكل جمالي، وهذه الوظيفة لا تظهر بمعزل عن سائر الوظائف. ومن منظور ثقافة الإسلام، لا يمكن أن يكون هذا الأثر الجمالي الذي يحدث القرآن في المتلقي هو المقصود أو هو الرسالة ذاتها. وإذا كان القرآن يتم تلقيه كنص أدبي، فإن ما يُعنى به بالدرجة الأولى هو إبلاغ الرسالة وهذا ما يجعل القرآن نصاً دينياً، إذ هو يهدف إلى شئ خارج عن ذاته وليس إلى مجرد المعيشة الجمالية لمن يسمعه ويقراه. ومع ذلك، نجد في تاريخ الأدب حالات عديدة اختلفت فيها مقاصد المؤلف عن استيعاب جمهوره، حيث تم تلقي النص كحدث فني وأدبي مع أن المؤلف لم يرغب في ذلك. وبالنظر إلى تاريخ تلقي القرآن، كذلك يُلاحظ أن تلقي القرآن عند المسلمين لم يكن مجرد إدراك شئ حقيقي يحملهم على الهيبة أو السعادة، بل رأوا في القرآن نوعاً من الأدب والجمال. فكانت المعيشة الجمالية بجانب المعيشة الدينية عندهم. وفي هذا السياق، إذا تأملنا تاريخ تلقيات القرآن الكريم، وتلك الأسئلة التي تراكمت حوله، فنجد أن الأسئلة الأدبية كان لها حضور دائم بين الأسئلة، متخذة أبعاداً جديدة تختلف باختلاف الآفاق والتطورات الأدبية. فالقرآن منذ بداية نزوله، بشكله

1. Wolfgang Iser

اللغوي وبنيتة التركيبية والموسيقية، استدعى انتباه المكين إلى كونه أدبيا وأثار أفق توقعاتهم الأدبية، إذ وجدوا فيها تقاربا بما عهدوها من قصائد شعرائهم وأقوال كهانهم، ويبدو ذلك بوضوح في الاتهامات التي يشنها خصوم النبي (ص) ضده. ونجد إشارات إلى تلك التهم في القرآن كقوله تعالى "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ". (الحاقة، ٤١-٤٢) وراح المتلقون الأوائل يقارنون بينه وبين تلك النصوص من منظور سماته الأدبية. فيمكن القول إن القرآن أصبح حدثا أدبيا بالنسبة لمعظم متلقيها من المكين وسائر الأعراب الذين يسمعون بتدكر القصائد الجاهلية والخطب وسجع الكهان، حيث كانوا يدركون خصوصيته الأدبية ابتداءً بمقارنته مع الأنواع الأدبية الأخرى التي سبق لهم أن يسمعوها.

وفي نفس المجال، عندما ندرس تلك البحوث التي تم تأليفها في الأدوار اللاحقة من النزول حول دور القرآن وإعجازه في انتشار الإسلام من جانب دارسي الإعجاز باعتبارهم المتلقين اللاحقين للقرآن الكريم، نلاحظ أنه أوشك الإجماع أن يُحصل على أن سر القرآن العظيم هو بلاغته المعجزة؛ أي إعجازه الذي تحدى به الله تعالى العرب منذ أول نزوله، لا يرجع إلى سبب خارج عنه كالصرفة ولا إلى سبب خارج عن بنيتة اللغوية وصيغته الشكلية، وهو مضمونه (أخباره وأحكامه)، إنما يرجع إلى أدبية القرآن وبيانه، وذلك يدل على أن للقرآن لديهم قيمة أدبية، إضافة إلى سائر قيمه، فبدأوا يبحثون عن ميزاته الشكلية والأسلوبية والبلاغية التي جعلته يفوق سائر النصوص الأدبية. وقد استمر هذا الإجماع على مدى العصور، حيث يُلاحظ في الدراسات العديدة للمعاصرين التركيز على البعد البلاغي والبياني لإعجاز القرآن، ومنهم سيد قطب الذي يرى أن مصدر سحره "لا بد أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده". (سيد قطب، ٢٠٠٢، ١٩) وكذلك نجد عند المستشرقين المعاصرين أيضا إلمام بأدبية القرآن وشكله وأسلوبه، ومن هؤلاء، المستشرفة الألمانية أنجليكا نويورث التي تؤكد على أن التحليل الأدبي للقرآن يكون الطريق الأفضل لدراسته، وتقول إن "مفتاح فهم القرآن، لا يمكن الحصول عليها بإسناد التاريخ الحقيقي إلى مابعد، أو إعادة كتابته وفق النماذج المسيحية، كما يطالب به اللسانيون أو المؤرخون بالتكرار، بل قط عبر تحليله الأدبي". (Neuwirth, 2014: 21) وذلك كله يدل على أن القرآن من ناحية أدبه وشكله كان على الدوام موضع اهتمام المتلقين ولم يتلقوه مجرد نص ديني، بل كانت له قابلية أن يتلقى ويُدرس من المنظور الأدبي، ويبدو أن هذه القابلية تكمن في لغته الخاصة.

إن اللغة في الأدب، هي قوام عملية التداوت، فهي تتيح للمعنى أن يصبح عاما مشتركا بين الذوات الواعية. يفرق موريس ميرلوبونتي بين نوعين من اللغة: المنطوقة التي يتداولها المجتمع أداة تقتفي ما هو جاهز من المعاني وتطمس ذاتها لكي توصله أو تعيد إنتاجه، والناطقة التي تخلق ذاتها في أفعالها التعبيرية وتنطق المعاني الجديدة. (توفيق، ١٩٩٢: ٢١٥) والواضح أن لغة الأدب تختلف عن اللغة اليومية والدارجة؛ فإن

هذا الأخير في حاجة إلى لغة تصل إلى الهدف مباشرة أو توصل إليه. ولكن اللغة في الأدب فلها شخصية كاملة تتأثر وتؤثر، وتنقل الأثر من المبدع إلى المتلقي. وللغة الأدبية قدرة على مستوى المدلول، إذ يشير في نفس الوقت إلى مدلولين أو أكثر. وذلك يعرف بالتحويل الدلالي في أنماط المجاز المختلفة. وهذا التحويل الدلالي ينقل النص من وظيفة الإخبار إلى وظيفة أخرى وهي الشعرية. وقد أدرك علماء اللغة والبلغويون الأوائل أثناء بحثهم في معاني القرآن وسر إعجازه، وفي سعيهم إلى تحديد مقاييس المفاضلة، وجود مستويين تستعمل فيهما اللغة؛ أحدهما عام بين الناس في معاملاتهم ولقضاء حوائجهم، وثانيهما مستوى أدبي وشعري حيث يتجاوز الأنماط التعبيرية الأليفة، وقد يحملها وظائف أخرى غير الإبلاغ والتواصل، فيصوغ عبارته بطريقة مخصوصة، لا ينكشف معها المعنى بيسر، فأطلقوا على المستوى الثاني "الاتساع" أو "المجاز". وجاء في توضيح السجلماسي للاتساع أنه "مقول بجهة تخصيص عموم الاسم على إمكان الاحتمالات الكثيرة في اللفظ، بحيث يذهب وهم كل سامع إلى احتمال من تلك الاحتمالات، ومعنى من تلك المعاني... وقيل هو أن يقول المتكلم قولاً يتسع فيه التأويل". (السجلماسي، ١٩٨٠: ٤٢٩) وعلى هذا الأساس، فإذا تلقينا القرآن كعمل أدبي، ودرسنا لغته كاللغة الأدبية، يؤدي ذلك إلى انفتاح عالم من التأويلات والتفاسير، واتساع النص القرآني للعديد من الاحتمالات.

وفي هذا الشأن، نعتقد أن لغة القرآن هي أدبية تحمل الدلالات المتعددة، وقد أشار إلى تعددية دلالاته الإمام علي (ع) عندما بعث رسالة إلى عبدالله بن عباس للاحتجاج على الخوارج، فقال له: "لا تخصصهم بالقرآن، فإن القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاجهم بالسنة، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً". (الشريف الرضي، ٢٠١٠: ٦٢٢-٦٢٣) وفي نفس السياق، قد جعل الشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠) معاني القرآن على أربعة أقسام، والقسم الرابع هو ما يكون اللفظ مشتركاً بين معنيين فما زاد عنهما، بحيث يمكن أن يكون كل واحد منهم مراداً، ويرى في هذه الحالة لا ينبغي أن يقال: إن مراد الله فيه بعض ما يحتل، بل ينبغي القول بأن "الظاهر يحتل لأمر، وكل واحد يجوز أن يكون مراداً على التفصيل. والله أعلم بالمراد". (شيخ الطوسي، ١٩٥٧: ٦) فالواضح أن القوة الدلالية في لغة القرآن الأدبية تجعلها قابلة لتعدد التفسيرات، وذلك يعود إلى قابلية هذه اللغة للتحويل الدلالي فيما يعرف بالاتساع والمجاز، كما قد تحدث ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) باتساع القرآن وتعدد تأويلاته، حيث يقول "إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار. والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي، ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس... مع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة". (ابن قتيبة، ١٩٧٣: ٨٦) وفي السياق نفسه، يردّ ابن قتيبة على منكري المجاز في القرآن ويقول: "وأما الطاعنون

على القرآن بالجواز فإنهم زعموا أنه كذب لأن الجدار لا يريد القرية لا تسأل. وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم. (ابن قتيبة، ١٩٧٣: ١٣٢-١٣٣) إذن، إن لغة القرآن لها القابلية أن تتسع للعديد من الاحتمالات، وإن تعددية الاحتمالات والتأويلات أمر مقبول في الثقافة الإسلامية، وإن تلقي القرآن كنص أدبي أمر ضروري لدراسة القرآن بالنظر إلى خطورة الوقوف عند ظاهر اللفظ الذي يؤدي إلى سوء الفهم والفساد كما صرح به ابن قتيبة.

وكم من أمور تظل خافية عند الاقتصار في قراءة القرآن على جانب الأمر والنهي، فإن الاقتصار على الوظيفة التشريعية للقرآن هو تقليل من تعددته وتنوعه من ناحية التأويل والإشارة. وإضافة إلى ذلك، فمن المستحيل إدراك التفرقة بين مستوى الكلام العادي والكلام المعجز دون الوقوف على المستوى الأدبي للقرآن الكريم وعدم التوقف عند خصائصه، ولذلك نجد عبدالقاهر يدافع دفاعاً تاماً عن الشعر واللغة الشعرية، ويعتقد أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت وبهرت، هي أنه كان "على حدّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، منتهيا إلى غاية لا يُطَمَح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك، إلا من عرف الشعر... ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصادّ عن ذلك صادّاً عن أن تُعرف حجة الله". (الجرجاني، ١٩٩٢: ٨-٩) وعلاوة على هذه القضايا، إن كون القرآن موضع الأسئلة الأدبية للمتلقين منذ نزوله إلى الفترات اللاحقة يعنى أن قارئ تلك الفترة كان ينظر إليه من منظور أدبي ويفهمه من هذا البعد، إضافة إلى سائر الأبعاد. وهذه المعرفة، حسب منهج يابوس، ترشدنا إلى طريقة تتمكن بها أن نفهم القرآن. وهذا كله يعطي لنا المسوغ أن نتلقى القرآن كنص أدبي وأن ننظر إليه من منظور وظيفته الشعرية بجانب سائر وظائفه.

٢-٤ الإشكاليات

إن النص الأدبي من منظور النظريات الحديثة كنظرية التلقي شكل من أشكال الإنجاز اللغوي يقيمه نظامه الخاص، ويحمل الدلالات المتعددة ويتيح أن يُقرأ أكثر من قراءة؛ إذ يحتاج النص باستمرار إلى قراء يحققونه، وفي حوار مع القراء، يتم توليد دلالاته، وفي تنوع القراءة تنوع لدلالاته أيضاً. فالنص يختلف باختلاف المناظير التي ينظر من خلالها إليه؛ وتتعدد الزوايا التي ينظر من خلالها إلى النص، تتعدد مآتم النص ومهامه في ضوء تعدد هذه الزوايا. وأدبية النص تزداد حين يتيح النص أن يُقرأ قراءات أكثر. وفي هذه الحالة، يصبح غير المهم عادة السؤال عن مقصد المرسل أو المؤلف، إذ الاقتصار على قصد المؤلف، يمنع من استيعاب وإدراك ظرفية النص الأدبية والجمالية بتماميتها، ولذلك يتحررون النص من المؤلف وينفلتون من إساره. وفي ذلك، يرى رومن إينغاردن أن "المؤلف، مع جميع تجربياته وحالاته المعنوية هو خارج عن العمل الأدبي، وإن

تجارب المؤلف، بشكل خاص، عند خلق النص، لا يمكن أن تكون أي جزء من النص". (Ingarden, 1973: 22) هو لا يرفض أن هناك علاقة وثيقة بين النص ومعنويات المؤلف، وأن النص قد يبين شخصية المؤلف، إلا أن الحقيقة هي أن المؤلف والنص هما "موضوعان غير متجانسين"، وبناء على هذا، يجب التفريق بينهما.

إن قطع صلة النص الأدبي بمبدعه من جهة، ومنظومة التوقعات والافتراضات الأدبية والسياقية التي تكون مترسبة في ذهن القارئ والمفسر عند استقباله النص الأدبي، والتي من الممكن أن تكون فردية لدى شخص محدد، أو يحملها جيل أو فئة من القراء عن النص الأدبي، من جهة أخرى، يؤدي إلى تباين مستويات القراءة وتعدد فهم القراء من النص الواحد. فكل الأحكام المسبقة التي توجد في وعي المتلقي، يؤدي إلى أن يأخذ النص الأدبي معاني جديدة حسب الوضعية التاريخية للقارئ. وعندئذ، عملية الفهم تصبح متغيرة طبقاً لتغير الآفاق والتجارب، وإن الفهم السابق لا يلغى الفهم اللاحق. وفي ذلك، يرى غادامير أن تلك التلقيات المتنوعة تشكل تاريخ فهم العمل، والمفسر الحاضر يتأثر بهذا التاريخ عند قراءة العمل وتأويله. وبالتالي فإن الفهم الحاضر يكون متجزراً في سلسلة الأفهام السابقة، وهو أكثر بدانة وتقدماً من تلك الأفهام المسبقة. وعلى هذا الأساس، يقرر غادامير في بساطة أن تحيزات المرء والأفهام المسبقة تشكل ركناً أساسياً في أي موقف تفسيري. وعلى هذا فتاريخية المفسر لا تشكل حاجزاً دون الفهم. (هولب، ٢٠٠٠: ٨٤) إذن، فهم أي نص في رأي مسبق بالأحكام المسبقة والتحيزات التي تنشأ عن فضاء تاريخي وثقافي واجتماعي وفكري محدد. وهذه العناصر تشكل معا "التقليد" الذي يمكن اعتباره دينامياً ومتقدماً يؤثر في الأفهام الجديدة وفي نفس الوقت يتأثر بها. وانطلاقاً من هذا، يعتبر غادامير أن التفسير النهائي والموضوعي مستحيلان، ولا يمكن الحديث عن الفهم الأفضل؛ لأنه بالنظر إلى منطلق الفهم الذي يتأثر بالعوامل المختلفة لا يمكن تعيين معايير ومقاييس لاختيار التفسير الأصح والأفضل. والحقيقة التي يتضمنها النص الأدبي- في رأي هؤلاء- ليست ثابتة، وتتغير من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر طبقاً لتغير أفق التلقي وتجارب المتلقين. وعلى ضوء هذا، فتلقي القرآن كنص أدبي وفق نظريات غادامير واينغاردن وبالتالي يوس وأيزر يؤدي إلى:

- تلقي القرآن وتفسيره عند كل المتلقي حسب خلفيته الذهنية وتحيزه، والاعتماد على الموقف الهرمينوطيقي للمتلقي في فهم معنى القرآن، وبالتالي تعددية التفسير.
 - تجاهل المؤلف وأهدافه من نزول القرآن، والتسوية بين التفسيرات الملائمة وغير الملائمة.
 - تكثر معنى القرآن وعدم وجود المعنى الثابت له.
- في هذا السياق، يمكن قبول رأي يوس وغادامير في أن وجود المتلقي (المفسر بالنسبة إلى القرآن)

مشروط بلحظة تاريخية معينة وبإطار اجتماعي يحدد شروط هذا الوجود وآفاقه. ومن هذا المنطلق، يصبح موقف المفسر بالمعنى التاريخي وتحيزاته والأفهام السابقة عاملا في فهمه للقرآن ولا غناء عنها في أي القراءة. فلا ريب أن تلقي النص يختلف من إنسان لآخر ومن تجربة لتجربة أخرى؛ إذ إن عملية التلقي تتأثر بعوامل لاحصر لها قد تكون خارجية مثل البيئة والجو العام والأحكام المسبقة. وفي ذلك يرى مجتهد شبستري أنه قبل أي مسعى علمي يكون لدى الباحث معرفة مسبقة عما يريد البحث عنه. ولا يمكن لأي عالم أو مترجم أو كاتب تشكيل أفكاره من العدم، فكل شخص لديه معرفة مسبقة عما يريد معرفة مزيد عنه. فإذا لم تكن هناك معرفة مسبقة بموضوع ما، فلم توجد رغبة في فهم ذلك الموضوع، إذ لا يمكن إيجاد العلاقة مع المجهول المطلق، ويقول: "لا يمكن لأي مفسر أو عالم إسلامي أن يقترب من المعارف القرآنية دون سلسلة من الأفهام المسبقة التي هي نفس المعرفة الإنسانية. ولا يمكن لأي مفسر أن يدعي أنه بعيد عن الأفهام المسبقة وأن ما حصل عليه ليست له الصبغة الإنسانية ولم يتأثر بالعوامل وظروف حياة الإنسان في عصره". (مجتهد شبستري، ١٣٨١: ٣٨) إذن لا يبدأ تفسير النص من فراغ، بل يبدأ من معرفة أولية عن النص ونوعه. وينتج عن تطبيق هذا الكلام على القرآن ألا يكون له تفسير موضوعي، لأن كل تفسير هو نتاج علاقة خاصة بين النص والمفسر بتحيزاته وأفكاره المسبقة. وبناء على هذا، يجب أن نقبل أنه لا توجد قراءة بريئة، ويجب على المفسر والمتلقي أن يتخلص من وهم النظرة الموضوعية؛ والواقع أن المفسر يبدأ من موقعه الراهن وهمومه المعاصرة محاولا اكتشاف الماضي وإن التقاه بالنص لايقع خارج إطار الزمان والمكان بل يتم في ظروف محددة. وهذه هي حقيقة، وبالتالي تؤدي إلى تعددية تفاسير القرآن. عندئذ يطرح هذا السؤال: هل يمكن قبول جميع التفاسير على أنها فرصة لإغناء التقليد؟ وما مدى حرية القارئ في إدخال تأويلاته على النص وفق رغباته النابعة عن أفقه التاريخي؟

لا يمكن الوقوف مع غادامير في أن جميع التفاسير مقبولة وإنما فرصة لإغناء التقليد؛ فرؤيته تفتقر إلى النقد والتقويم، إذ تم تجاهل بعض الأمور الهامة جدا فيها كهيمنة السلطة والأيدولوجيا على أفكار المتلقين والمفسرين، والاتفاق الذي تم التوصل إليه بين المفسر والنص يُصبح مشوها ومنحرفا لتأثره بهيمنة تلك القوى المخفية والأيدولوجيات. وفي هذا السياق، يرى ايريك د. هيرش أن الهيرمينوطيقا يجب أن يتسلح بالنقد والتقويم، ويقول: "إذا ما فشلت الهيرمينوطيقا في توفير معيار للتمييز بين الفهم الصحيح والفهم الباطل، فإن استخدامها سيكون بلا جدوى". (Palmer, 1969: 65) إذن، فلا ريب أن فهم القرآن يختلف عند كل شخص في أي موقف، ولكن هذا لا يعني قبول جميع التفاسير والتلقيات، بل يجب تحديد مدى لتقويم التفاسير وفق المعايير المحددة. ولتمييز التأويل الصحيح والحكم على التفاسير، بعض من النقاد يجعلون من المؤلف مؤشرا للتمييز؛ فالعمل الأدبي، في رأي هؤلاء، يتمركز حول بؤرة تتلاءم مع فكر الكاتب، الذي يعد

كنظام شمسي، تدور حوله جميع الأشياء، واللغة والمخبرات والعقدة ليست إلا كواكب تابعة لكيان. بينما نجد عند بعض آخر، الدعوة إلى إهمال المؤلف. فإهمال المؤلف عند غدامير ينبع من تصوره أن معنى العمل الأدبي يختلف من عصر لعصر؛ فمقاصد المؤلف، حسب رأيه، لا تستنفد معنى العمل الأدبي، ذلك أنه بانتقاله من سياق ثقافي أو تاريخي إلى آخر، يمكن للعمل الأدبي أن يأخذ معاني جديدة، ما كان ممكناً أبداً للمؤلف أو جمهوره المعاصر أن يتنبأ بها. (إيجلتون، ٢٠٠٣: ١١٣) وتؤدي رؤيته هذه إلى إنكار المعنى الثابت للنص الأدبي ورفض الحقيقة الثابتة للنص. وفي هذا الإطار، نجد "ولفغانغ أيزر" يرفض، واقفاً مع غدامير، المعنى الوحيد للنص بدعوى أنه يقلل من حرية القارئ ومشاركته في إنتاج المعنى.

وأما بالنسبة إلى القرآن الكريم، نعرف أن الرجوع إلى المقصد الأصلي للمرسل يشكل أهمية أساسية من ناحية الدين عند المفسر الذي يعتبر الله تعالى هو الشارع وهو منزل الكتاب. وفي الثقافة الإسلامية، تم قبول مراده تعالى كأساس في عملية التفسير من جانب المفسرين المسلمين. ووفقاً للاعتقاد الشائع، فإن معنى القرآن هو ما قصده تعالى، وبالتالي فإن الغرض من التفسير هو الوصول إلى ذلك المعنى، كما يصف الألوسي علم التفسير بـ"الباحث عما أراده الله سبحانه بكلامه المجيد". (الألوسي، لاتا، ج ١: ٣) وعلى ضوء هذا، نعتقد أن حقيقة القرآن ليست متغيرة بل إنها ثابتة وهي مقصورة على مراد الله تعالى، إلا أنها بعيدة يدرك كل إنسان طرفاً منها ولا يدركها في شمولها أو يحيط بها كلها. وليس بإمكان أي إنسان معرفة كل دلالات المعاني للآيات. ولا يمكن لأي تفسير الإحاطة بكل إمكانيات المعاني المتولدة عن النص، ولا يمكن للمفسر أن يفهم القرآن فهماً مطلقاً، كما يقول الزركشي إن "فهم كلام الله تعالى لا غاية له، كما لا غاية للمتكلم به؛ فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه للبشر". (الزركشي، ١٩٨٤، ج ٢: ١٥٥) وكان القدماء على وعي في أن تفسيراتهم وتأويلاتهم مجرد اجتهادات قد تقارب الحقيقة أحياناً، وقد تباعد عنها أحياناً. وليس اختلاف التأويلات هو اختلاف المرادات؛ فالمعنى هو ثابت ونهائي، والتأويلات متعددة، إذ إن هذا المعنى الثابت هو بعيدة المنال و"كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة". (الجرجاني، ١٩٧٨: ١٤١) وبما أن المعنى هو بعيد المنال، فدرجة الاقتراب وكيفية الوصول إلى المعنى مختلفة عند كل المتلقي، وذلك ما يسمح لتعددية تأويلات النص وتحققاته، فيجب الالتزام بتمايز بين المعنى والتأويل، فالمعنى ثابت ووحيد ولكنه بعيد، والتأويل متعدد ومتغير.

وفيما يتعلق بمعياري التمييز بين التفاسير الملائمة وغير الملائمة وكذلك مدى حرية القارئ في إدخال تأويلاته على النص، فيجب أولاً تعيين معيار لاكتشاف موضع يحتاج فيه الكلام إلى التأويل. وفي هذا

السياق، يجدر بالملاحظة تقسيم الجرجاني الكلام من حيث احتياجه إلى التأويل إلى ثلاثة أقسام: ١. ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، الذي ليس من التأويل في شيء، ٢. ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، ٣. ما يدق ويغمض حتى يُحتاج في استخراجه إلى فضل رؤية ولطف فكره. (الجرجاني، ١٩٧٨: ٧٣) والذي يهمننا هو القسم الثالث الذي يحتاج فيه القارئ إلى التأويل للوصول إلى المعنى. إن ما طريقه التأويل، يعمل على تعدد الاحتمالات في فهم النص الأدبي وبالتالي يؤدي إلى الغموض. وإن الغموض المتولد عن أساليب البلاغة كالمجاز، يخلق نوعاً من تعدد احتمالات المعنى، فضلاً عن اتساع دائرة التأويل والتفسير الناجمة عن هذا الغموض. وفي هذا السياق، لتمييز الموضوع المحتاج إلى التأويل في أسلوب المجاز، على سبيل المثال، يشترط قاضي عبد الجبار "ضرورة اتباع الجماعة اللغوية في النقل والتجاوز وإلا اختلت وظيفة اللغة وأدى ذلك إلى قلب المعاني". (عبد الجبار، ١٩٦٥، ج ٥: ١٧٢-١٧٣) وفي رأيه، إذا كان المجاز في المفردات، لا بد من أن يراعي المتكلم عرفية المجاز وشيوعه. أما إذا وقع المجاز في التركيب، فلا بد من أن تتصل بالكلام قرينة لفظية تدل على إرادة المجاز، ويستنتج أنه إذا تعارض ظاهر النص مع المعرفة العقلية بقصد الله، تصبح القرينة في هذه الحالة قرينة عقلية أشد في دلالتها من القرينة اللفظية المتصلة بالكلام نفسه، ويرى أبو زيد في منهج قاضي الجبار أنه "قد أخضع دلالة القرآن كله لدلالة العقل، بناء على أن اللغة لا تدل إلا بعد معرفة القائل، فإن الحكم والمتشابه كليهما في حاجة إلى هذه المعرفة العقلية لوقوعهما دلالة". (أبو زيد، ١٩٩٦: ١٨٨) إذن، إن الاعتماد على التعقل لمعرفة قصد المتكلم أساسية عند القاضي عبد الجبار. وكذلك الحال بالنسبة إلى عبد القاهر الجرجاني.

يفرق الجرجاني بين المجاز إذا وقع في الألفاظ المفردة أو وقع في التركيب الذي يسميه الجرجاني مجازاً من طريق المعقول دون اللغة، ويقول في هذا الأخير إن "الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل، لا يصح ردها إلى اللغة، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم، فلا يصير "ضرب" خبر عن "زيد" بواضع اللغة، بل من قصد إثبات الضرب فعلاً له". (م.ن) فالمجاز في رأيه يقع في الإثبات وفي الإسناد الذي هو من صنع المتكلم ويدل على قصده النفسي العقلي. فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له، شيء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها، والمرجع فيه العقل المحض، وليس للغة فيه حظ فلا تحلى ولا تمر، والعربي فيه كالعجمي. إذن، يتضح أن معيار اكتشاف الموضوع المحتاج إلى التأويل عند الجرجاني أيضاً يقع في التعقل ومعرفة قصد المتكلم.

وجدير بالذكر أن الغموض في النص الأدبي لا ينحصر في الأساليب البلاغية، وقد ذكر كل من إنغاردن وأيزر أنواعاً متعددة من الغموض الذي ينشأ من الفراغات والمواقع اللاتحديد في النص. والمهم أن الغموض الحاصل من الأساليب البلاغية أو من الفراغات، هو موضع يشتد فيه احتياج النص إلى التأويل،

وبالتالي، يسمح لمشاركة القارئ، وهو في معرض تعددية التأويلات. وفي هذا المجال، يمكن القول إن القرآن يتطابق مع معيار أيزر للعمل الأدبي الناحج الذي يجب "ألا يكون واضحاً تماماً في الطريقة التي يقدم بها عناصره، وإلا فإن القارئ سيخسر اهتمامه". (هولب، ١٩٩٢: ١١٨) وقد ورد مشابه هذا الكلام، الزمخشري في تفسيره عند الحديث عن المحكم والمتشابه ويقول إن القرآن "لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجملة ونيل الدرجات عند الله" (الزمخشري، ٢٠٠٩، ١٤١).

وانطلاقاً مما قلنا عن معيار تمييز المجاز عند كل من قاضي عبد الجبار وكذلك الجرجاني، يمكن القول إن إشارة ذلك الأول إلى القرينة في التركيب وضرورة التعقل، وكذلك التفات الجرجاني إلى الإسناد في التركيب عن طريق المعقول، أمر هام جداً، حيث يلمح إلى بنية النص التركيبية في وعيهما، وإن هذه البنية المركبة تحصل بتعقل القارئ، إذ هو من يربط المجاز بتلك القرينة. وخير ما يؤكد على هذه البنية التركيبية للنص، عند الجرجاني، هو تعريفه لمفهوم "النظم"، إذ يقول "كان عندهم نظيراً للنسخ والتأليف والصياغة و... مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك... أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل". (الجرجاني، ١٩٩٢: ٥٠) وفي نفس المجال، يذهب أيزر إلى أن ضم جوانب النص المختلفة يكون من أجل بناء التماسك وتشكيل صيغة كلية للنص الأدبي. وإن البحث عن التناسق في النص وضمّ كل جوانب النص، هو مهمة القارئ المستمرة عند القراءة. فالقارئ، في رأي أيزر، هو في بحث مستمر عن تكوين التماسك في النص، حيث يقول إن القارئ "سوف يظل يكافح - وإن بصورة لا واعية - من أجل أن يضع كل شيء معا في نموذج متسق". (أيزر، ١٩٩٩: ١٢٥) وإن هذه البنية التركيبية تقع في مستوى أجزاء الجملة الواحدة، والجملة والفقرة والنص.

على هذا الأساس، إذا اعتبرنا النص هو نسيج العلاقات وكنية واحدة تصنعها عناصر فنية مختلفة، وإذا اعتبرنا القرآن كنص أدبي مشتمل على الغموض، فعند عدم معرفة قصد المتكلم وعدم توفر المعنى وكونه بعيداً عن تناول اليد، وعندما يشتد احتياج النص إلى التأويل، عندئذ، لا بد من التمسك بمبدأ الانسجام في النص بالنظر إلى بنيته التركيبية، فكل مظهر في النص يجب تأويله داخل نسق انسجام الكل. وهذا الانسجام هو معيار تمييز التفاسير الملائمة وغير الملائمة، وإنه يعيّن مدى حرية القارئ في التأويل. وذلك يعني أن القارئ لا يستطيع أن يؤول النص وفق رغبته، لأن النص يمارس درجة من التحديد على ردود قرائه،

وإلا سيظهر النقد منحدرًا نحو مشارف فوضى شاملة، فهنا ينبّه أيزر إلى وجود الرقابة النصية التي تُسهم في تأطير تدخلات القارئ التأويلية، ويقول "إن ما هو خفي يحد القارئ على الفعل، ولكن هذا الفعل يكون مراقبًا أيضًا بما هو مكشوف". (أيزر، ١٩٨٧: ١٠٠) فيعطي أيزر قاعدة، وهذه القاعدة تسمح بتعيين التحققات القريبة والبعيدة عن العمل. بناء على قاعدة أيزر، يمكن القول إن أقرب التحقق إلى العمل، هو ما كان يُستنبط من النقاط الثابتة في النص، فهو يتصور للنص الأدبي حدودًا وهذه الحدود "يفرضها النص المكتوب كمقابل للنص غير المكتوب". (أيزر، ١٩٩٩: ١٢٣) انطلاقًا من هذا، فإن أقرب تأويل لحقيقة الآيات القرآنية، هو ما كان مُستنبطًا من سياق السورة باعتبارها وحدة أدبية متكاملة. والتأويلات المأخوذة من السور الأخرى، تقع في المرتبة الثانية. وعلى هذا الأساس، فالتأويلات النابعة من النصوص الأخرى، كالنصوص الشعرية القديمة، ليست خطأ، ولكنها أبعد من العمل. ولذلك، فينبغي على القارئ المفسر أن يسعى، مهما الإمكان، أن يكتمل تأويلاته عن الآيات، أولاً حسب سياق السورة نفسها، ثم حسب سياق السور الأخرى.

ولإيضاح الموضوع نأتي بمثال عن سورة الرحمن التي تمتاز عن سائر السور بوصف الجنة، وتصوير مظاهر الجنة والنعيم، في مقابل وصف الجحيم والوعيد والترهيب؛ عندما نقرأ سورة الرحمن، نجد استخدام صيغة التثنية وتكرار "آن" في السورة، يمثل درجة عالية من الإيقاع والصوت في السورة، ويخلق بعدًا جماليًا. إن علاقة هذه التثنية وتكرارها بوحدة السورة ودورها في تكوين معنى السورة، يشكل فضاءً واسعاً من الغموض. وفي هذا المجال، نركز على لفظ "الجنة" في ﴿وَلِيْمُنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. إن هذا اللفظ من المنظور الصربي يدل على إثنان من الجنة، وإذا نقول إنه جاء بصيغة المثني لرعاية القافية، فهو أسهل الطريق، ولا يفيد المعنى شيئاً، ولا يتناسب مع الفضاء الثنائي الغالب في السورة، وبالتالي يدل على التسرع. وقد شكّلت تثنية الجنة فضاءً غامضاً، وقد أثارت التحققات المختلفة من قبل القراء المفسرين. وفي هذا السياق، يرى الزمخشري أن لفظ "جنتان" جاء بهذا الشكل لأن "الخطاب للثقلين كأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الأنسي، وجنة للخائف الجني، ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي؛ لأن التكليف دائر عليهما. وأن يقال: جنة يثاب بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل كقوله تعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة". (الزمخشري، ٢٠٠٩: ١٠٧٣) فإذا نعتب عبارات الزمخشري كالتأويلات المحتملة لتثنية الجنتين، فالتحقق الأول هو مُستنبط من سياق السورة، ومن ثنائية الإنس والجن في سياق الآيات ٣١، ٣٣، ٣٩، ٥٦، ٧٤. أما التحقق الثاني، فلعله تم إنتاجه من دلالات عبارة "المن يخاف مقام ربه"، والتحقق الثالث هو مأخوذ من السور الأخرى في القرآن. نحن لا نحكم على هذه التأويلات من حيث الصحة والخطأ، ولكننا نستطيع القول إن التأويل المستنبط من سياق السورة نفسها هو أقرب إلى التلاؤم من

ذلك الذي تم الحصول عليها من سياق السور الأخرى، لأن الربط بين أجزاء السورة الواحدة أقوى تماسكا وأكثر تناسبا من ربط هذه الأجزاء بأجزاء السور الأخرى.

بناء على ذلك كله، يمكن القول إن الغموض في القرآن باعتباره نصا أدبيا، يثير المتلقي إلى التعقل وإعمال الفكرة وتحته على السير من القاعدة الأمامية أي اللفظ والشكل إلى القاعدة الخلفية أي المضمون والمعنى، وهذا السير له بعد زمني. وكلما يكون المعنى أبعد، يشتد احتياج النص إلى التأويل، وبالتالي، فالمسير الذي يبدأ القارئ بالسير فيه، يصبح أكثر طولاً، ويضطر فيه القارئ باستمرار أن يتخذ قرارات انتقائية، إلا أن قراراته يجب أن لا تخرج من دائرة انسجام النص بوصفه بناء متسقاً ومتماسكاً. وفي الانسجام تبرز أهمية الدور الذي يقوم به القارئ، حيث يتم ربط أجزاء النص بعضها إلى البعض من جانب القارئ. فالروابط المفتوحة بين المنظورات في النص تثير همة المتلقي إلى إعمال الفكر وتحته على التنسيق بين هذه المنظورات وعلى إنجاز العملية الأساسية داخل النص.

٥. الخاتمة

إن تلقي النصوص الأدبية، من منظور نظرية التلقي، يقتضي أن يتجاهل المؤلف من أجل إعطاء حرية أكثر للقارئ، حيث إن الاختصار على قصد المؤلف، يمنع من استيعاب ظرفية النص الأدبية والجمالية بتاميتها. ثم إن الحقيقة التي تتضمنها النصوص الأدبية، هي ليست ثابتة بل تتغير من جيل إلى جيل طبقاً لتغير أفق التلقي وتجارب المتلقين، فلا يمكن الحديث عن الفهم الأفضل ولا يمكن تعيين معيار لاختيار التفسير الأصح والأفضل. بالنسبة إلى سائر النصوص الأدبية، يمكن قبول هذا الاتجاه، أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم، فلا يمكن إهمال المؤلف ولا يمكن رفض المعنى النهائي للنص القرآني، لأن الرجوع إلى المقصد الأصلي للمؤلف هو أساس عملية التفسير، ومعنى القرآن هو ما قصده تعالى. وحقيقة القرآن ثابتة وهي مقصورة على مراده تعالى، إلا أنها بعيدة يدرك كل إنسان طرفاً منها ولا يدركها في شمولها ولا يحيط بها كلها. فيجب التمايز بين المراد والتأويل، وليس اختلاف التأويل هو اختلاف المراد، فالمعنى ثابت ونهائي ولكنه بعيد المنال ودرجة الاقتراب وكيفية الوصول إليه مختلفة عند المتلقين وذلك يسمح بتعددية التأويلات. وتعددية التأويلات هي أمر سمح له التقليد الإسلامي وأجازتها خاصية لغة القرآن الأدبية، وسوغ لها عدم توفر المعنى وكونه بعيد المنال. ومن هذا المنطلق، إن القارئ عندما يتلقى النص القرآني من منظور النظريات الحديثة كنظرية التلقي، يجب أن يعتبر النص بناء متماسكاً، وعندئذ، على أساس هذا البناء المنسجم، يستطيع أن يميز تلك المواضيع الغامضة التي تحتاج إلى التأويل، ثم يقوم بتأويل النص ملتزماً في نفس الوقت بمبدأ الانسجام، ساعياً أن لا يخرج في تأويله من إطار تلك الصيغة الكلية للنص. إذن، يمكن القول إن مبدأ الانسجام يقدم لنا معياراً

لتمييز التفاسير القريبة والبعيدة عن حقيقة القرآن ويسهم في تأطير تدخلات القارئ التأويلية عند تلقيه هذا النص في ضوء النظريات الحديثة.

٦. المصادر والمراجع

- [١] ابن قتيبة، (١٩٧٣)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، الطبعة الثانية، القاهرة.
- [٢] أبوزيد، نصر حامد، (١٩٩٦)، الاتجاه العقلي في التفسير: دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- [٣] أبوزيد، نصر حامد، (٢٠١٤)، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، مكتبة الفكر الجديد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- [٤] أحمد بدوي، أحمد، (١٩٩٦)، أسس النقد الأدبي عند العرب، الطبعة الأولى، نُهضة مصر، القاهرة.
- [٥] الألوسي، شهاب الدين السيد محمود، (لا تا)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الجزء الأول، ادارة الطباعة المنيرية، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- [٦] إيجلتون، تيري، (٢٠٠٣)، الفينومينولوجيا والهرمينوطيقا ونظرية التلقي، تقدم وترجمة: توفيق سخان، الملتقى، العدد رقم ١١، مارس ٢٠٠٣، صص ٩١-.
- [٧] أيزر، ولفغانغ، (١٩٩٩)، عملية القراءة: مقرب ظاهراتي، ضمن كتاب "نقد استجابة القارئ من الشكلائية الى مابعد البنيوية"، جين.ب.تومبكنز، تر: حسن ناظم و على حاكم، مراجعة و تقدم محمد جواد حسن الموسوس، المشروع القومي للترجمة الذي يشرف عليه المجلس الاعلى للثقافة.
- [٨] _____، (١٩٧٨)، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب، تر: د. حميد لحمداني، د. الجلالى الكدية، فاس: منشورات مكتبة المناهل.
- [٩] توفيق، سعيد، (١٩٩٢)، الخبرة الجمالية دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
- [١٠] الجرجاني، عبد القاهر، (١٩٧٨)، اسرار البلاغة، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، بيروت: دار المعرفة.
- [١١] الجرجاني، عبد القاهر، (١٩٩٢)، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد الشاكر، القاهرة: دار المدني.
- [١٢] الجرجاني، عبد القاهر، (١٩٨٨)، اسرار البلاغة، تعليق محمود محمد الشاكر، الجدة: دار المدني.
- [١٣] رجا الله الجامعي السلمي، عبد الرحمن، (٢٠٠٩)، النص القرآني في منظور الدراسة الأدبية: الموقف والمنهج، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، السنة الأولى، العدد الأول، صص ٣٠١-٣٢٤.

- [١٤] الزركشي، محمد بن عبدالله، (١٩٨٤)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد ابوالفضل ابراهيم، المجلد الثاني، الطبعة الثالثة، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- [١٥] الزمخشري، (٢٠٠٩)، تفسير الكشاف، اعتنى به: خليل مأمون شيخا، الطبعة الثالثة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- [١٦] السحلماسي، (١٩٨٠)، المنزح البديع في تجنيس البديع، تحقيق وتقديم علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط.
- [١٧] سي هولب، روبرت، (١٩٩٢)، نظرية الاستقبال، رؤية نقدية، ترجمة رعد عبد الجليل، دارالحوار اللاذقية.
- [١٨] سيد قطب، (٢٠٠٢)، التصوير الفني في القرآن، دارالشروق، الطبعة السادسة عشرة، القاهرة.
- [١٩] الشريف الرضي، (٢٠١٠)، نخب البلاغة للإمام علي (ع)، تحقيق: الشيخ قيس بمهجعت العطار، الطبعة الأولى، مؤسسة الرافد للمطبوعات، قم.
- [٢٠] شيخ الطوسي، (١٩٥٧)، التبيان في تفسير القرآن، المجلد الأول، المطبعة العلمية في النجف.
- [٢١] قاضي عبد الجبار، (١٩٦٥)، المغني، الجزء الخامس: الفرق غير الاسلامية، تحقيق: محمود محمد الحضيبي.
- [٢٢] مجتهد شبستري، محمد، (١٣٨١)، هرمونيك، كتاب وسنت، فرآيند تفسير وحي، انتشارات طرح نو، چاپ پنجم، تهران.
- [٢٣] هولب، روبرت، (٢٠٠٠)، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، تر: عزالدين إسماعيل، الطبعة الأولى، المكتبة الأكاديمية، القاهرة.
- [٢٤] يابوس، هانز روبرت، (٢٠٠٤)، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، تر: رشيد بنحدو، الطبعة الأولى، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- [25] Ingarden, Roman, (1973). *The Literary Work of Art: An Investigation on the Borderlines of Ontology, Logic, and Theory of Literature*. 1931. Trans. George G. Grabowicz. Evanston: Northwestern U.
- [26] Mir, Mustansir, (1988). *The Qur'an as Literature, Religion and Literature*, Vol. 20, No. 1, Pp.49-64
- [27] Neuwirth, Angelika, (2014). *Scripture, Poetry, and the Making of a Community, Reading the Quran as a Literary Text*. London: Oxford University Press.
- [28] Palmer, Richard, (1969). *Hermeneutics*. Evanston: Northwestern

University Press.

- [29] Rahman, Yusuf, (2012). 'The Qur'an as Literature: Literary Interpretation of the Qur'an', *Journal of Quran and Hadith Studies*, Vol.1, No. 1, Pp.23-40.
- [30] Salama, Mohammad, (2018). *The Quran and Modern Arabic Literary Criticism, from Taha to Nasr*. UK: Bloomsbury Academic.

References

- [1] Ibn Qutaiba, (1973). *Interpretation of the Problem of the Qur'an*, investigated by Ahmed Saqr, Cairo: Dar Al-Turath, 2nd Edition.
- [2] Abu Zaid, Nasr Hamed, (1996). *The Mental Attitude in Interpretation: A Study in the Case of Metaphor in the Qur'an for the Mu'tazila*. 3rd Edition, Casablanca: The Arab Cultural Center.
- [3] Abu Zaid, Nasr Hamed, (2014). *The Concept of the Text: A Study in the Sciences of the Qur'an*, Casablanca: The Arab Cultural Center.
- [4] Ahmed Badawy, Ahmed, (1996). *The Foundations of Literary Criticism among the Arabs*. 1st Edition, Cairo: Nahzat Misr.
- [5] Al-Alusi, Shihab Al-Din Al-Sayyid Mahmud, (Undated). *The Spirit of Meanings in the Interpretation of the Great Qur'an and the Seven Repetitions*. Part One, Muniriya Printing Department, Beirut: Dar Ihya al-Turath al-Arabi.
- [6] Eagleton, Terry, (2003). *Phenomenology, Hermeneutics and Theory of Reception*. Presented and Translated: Tawfiq Khan, Al-Multaqa, Issue No. 11, March 2003.
- [7] Iser, Wolfgang, (1999). 'The Reading Process: A Phenomenological Approach', in *A Critique of the Reader's Response from Formality to Post-Structuralism*, Jane B. Tompkins, Trans.: Hassan Nazem and Ali Hakem, revised and presented by Muhammad Jawad Hasan al-Mousus, The National Project Translation which is supervised by the Supreme Council of Culture.
- [8] Iser, Wolfgang, (1978). *The Act of Reading, A Theory of Responsive Aesthetics*, TR: Dr. Hamid Lahmdani, Dr. Al-Jalali Al-Kadiya, Fez: Al-Manahil Library Publications.
- [9] Tawfiq, Saeed, (1992). *Aesthetic Experience: A Study in Phenomenological Philosophy of Beauty*, Beirut: University Foundation for Studies and Publishing.
- [10] Al-Jurjani, Abdel-Qaher, (1978). *Asrar Al-Balagha*. Investigated by

- Muhammad Rashid Reza, Beirut: Dar almaerifah.
- [11]———, (1992). *Evidence of Miracles*. Commentary by Mahmoud Muhammad Al-Shaker, Cairo: Dar Al-Madani.
- [12]———, (1988). *Asrar Al-Balagha*. Comment: Mahmoud Muhammad Al-Shaker, Jeddah: Dar Al-Madani.
- [13]Raja Allah Al-Jamei Al-Selmi, Abdul Rahman, (2009). 'The Qur'anic Text in the Perspective of Literary Study: Attitude and Approach'. *Journal of Linguistic and Literary Studies*, Year 1, Issue 1, Pp 301-324.
- [14] Al-Zarkashi, Muhammad bin Abdullah, (1984). *The Proof in the Sciences of the Qur'an*. Investigated by: Muhammad Abolfazl Ibrahim, Vol. 2, 3rd Edition, Cairo: Dar Al-Turath.
- [15] Al-Zamakhshari, (2009). *Tafsir Al-Kashaf*, by Khalil Mamoun Shiha, 3rd Edition, Beirut: Dar Al- Maerifah.
- [16] Al-Sijlmasi, (1980). *The Creative Genius in the Naturalization of Budaiya*, Edited and Presented by Allal Al-Ghazi, Rabat: Al-Maaref Library.
- [17] C. Hulab, Robert, (1992). *Reception Theory, Critical Introduction*. Translated by Raad Abdel Jalil, Lattakia: Dar Al-Hiwar.
- [18]———, (2000). *Reception Theory, Critical Introduction*, Trans: Ezzedine Ismail, 1st Edition, Cairo: Academic Library.
- [19] Sayed Qutb, (2002). *Artistic Painting in the Qur'an*, Cairo: Dar Al-Shorouk, 16th Edition.
- [20] Al-Sharif Al-Razi, (2010). *Nahj Al-Balagha of Imam Ali*, Investigation: Sheikh Qais Bahjat Al-Attar, 1st Edition, Qom: Al-Rafed Institution for Publications.
- [21] Sheikh Al-Tusi, (1957). *Al-Tibayan in the Interpretation of the Qur'an*, Vol. 1, Najaf: Scientific Press.
- [22] Qazi Abdul-Jabbar, (1965). *Al-Mughni*, Part V: Non-Islamic Groups, Investigation: Mahmoud Muhammad Al-Khudairi.
- [23] Mojtahed Shabestari, Mohammad, (2002). *Hermeneutics, Book and Tradition, Revelation Interpretation Process*, 5th Edition, Tehran: New Plan Publications.
- [24] Jauss, Hans Robert, (2004). *The Aesthetic Reception for a New Interpretation of the Literary Text*, Trans: Rashid Benhaddou, 1st Edition, Cairo: The National Project for Translation, Supreme Council of Culture.
- [25] Ingarden, Roman, (1973). *The Literary Work of Art: An Investigation on the Borderlines of Ontology, Logic, and Theory of*

- Literature*. 1931. Trans. George G. Grabowicz. Evanston: Northwestern U.
- [26] Mir, Mustansir, (1988). *The Qur'an as Literature, Religion and Literature*, Vol. 20, No. 1, Pp.49-64
- [27] Neuwirth, Angelika, (2014). *Scripture, Poetry, and the Making of a Community, Reading the Qur'an as a Literary Text*, London: Oxford University Press.
- [28] Palmer, Richard, (1969). *Hermeneutics*, Evanston: Northwestern University Press.
- [29] Rahman, Yusuf, (2012). 'The Qur'an as Literature: Literary Interpretation of the Quran', *Journal of Quran and Hadith Studies*, Vol.1, No. 1, Pp.23-40.
- [30] Salama, Mohammad, (2018). *The Quran and Modern Arabic Literary Criticism, from Taha to Nasr*, UK: Bloomsbury Academic.

Challenges of Receiving the Qur'an as a Literary Text in Light of Hans Robert Jauss' Reception Theory

Zahra Delavar^{1*}, Kobra Roshenfekr², Isa Motaghizadeh³,
Hamid Reza Shairi⁴

1. PhD Student in Arabic Language and Literature, Tarbiat Modares University, Tehran, Iran.
2. Professor in Arabic Language and Literature, Tarbiat Modares University, Tehran, Iran.
3. Professor in Arabic Language and Literature, Tarbiat Modares University, Tehran, Iran.
4. Professor in French Language and Literature, Tarbiat Modares University, Tehran, Iran.

Abstract

Receiving the Qur'an as a literary text is one of the epistemological responses of scholars to this text in the twentieth century. This kind of reception has a long history in the Islamic heritage, especially in the studies of Qur'anic commentators and scholars, but there are fundamental differences between the literary reading of the Qur'an in the past and in the present. These differences arise from the methods used to analyze and study the literary text. If we look at the Qur'an as a literary text from the perspective of modern theories, we encounter with challenges because the literary text, under in this view, is considered an open and pluralistic text in terms of meaning, during its formation and reception. This article examines the challenges raised by receiving the Qur'an as a literary text in light of "Reception Theory". In this regard, it is observed that the principle of coherence provides us with a criterion for distinguishing interpretations close and far from the truth of the Qur'an and contributes to framing the reader's participation in the process of reading the Qur'an as a literary text from the perspective of modern theories.

Keywords: Literary Text; Reception Theory; The Holy Qur'an.

*Corresponding Author's E-mail: z.delavar@modares.ac.ir

چالش‌های دریافت قرآن به منزله‌ی متن ادبی در پرتو نظریه‌ی دریافت هانز روبرت یاوس

زهرا دلاور ابریکوه^{۱*}، کبری روشنفکر^۲، عیسی متقی‌زاده^۳، حمیدرضا شعیری^۴

۱- دانشجوی دکتری گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس

۲- استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس

۳- استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تربیت مدرس

۴- استاد گروه زبان و ادبیات فرانسه دانشگاه تربیت مدرس

چکیده

دریافت قرآن به منزله‌ی متن ادبی، یکی از پاسخ‌های معرفت‌شناختی پژوهشگران به این متن در قرن بیستم به شمار می‌آید. این نوع دریافت پیشینه‌ی طولانی در میراث اسلامی و به خصوص در پژوهش‌های دانشمندان اعجاز قرآنی دارد، لیکن خوانش ادبی قرآن در گذشته و هم اکنون تفاوت‌های بنیادی با یکدیگر دارد. این تفاوت‌ها ناشی از تفاوت در روش‌ها و نظریه‌های به کار گرفته شده توسط هر کدام از این دو گروه، در خوانش این متن است؛ چنانچه از چشم‌انداز نظریه‌های جدید به قرآن به منزله‌ی یک متن ادبی بنگریم با چالش‌هایی روبرو می‌شویم، چرا که در این افق، متن ادبی یک متن مفتوح و دارای تکرر معنایی در حین تکوین و دریافت انگاشته می‌شود. در این پژوهش چالش‌های موجود در این نوع دریافت را مورد واکاوی قرار می‌دهیم و هدف از آن، شناسایی چالش‌های پیش روی دریافت قرآن به منزله‌ی متن ادبی در پرتو نظریه‌ی دریافت است. در همین راستا، ملاحظه گردید در فرآیند خوانش قرآن به عنوان متن ادبی در پرتو نظریه‌های جدید، می‌توان با به کارگیری قاعده انسجام، ضمن تعیین شاخصی برای سنجش تفاسیر نزدیک و یا دور از حقیقت متن، چارچوبی را برای میزان مشارکت خواننده در تفسیر در نظر گرفت.

واژگان کلیدی: متن ادبی، نظریه‌ی دریافت، قرآن کریم.